

«الطريق»: البراءة والعنف جسرا فيليني إلى محبي السينما في العالم

عمل من أصدق تمثيلات الواقعية الإيطالية الجديدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية



درة أعمال فيليني

تضفي على عمله بهجة، ويقدمه مدير السيرك إلى الجمهور بأنه "الرجل ذو الرثة الحديدية"، وكان ذلك آخر عهد له بالسيرك، فأمن الخمر، وذات ليلة لم يتحكم في سلوكه، فأمر صاحب الحانة بضعة عمال بإخراجه، وتبادلوا اللكمات والقوهِ في الطريق. ونهض زامبانو، الفارغة، ركلها في ليل صامت، وعبر قضباناً لخط سكة حديدية، وصاح "لا احتاج إلى أصدقاء. لا احتاج إلى أحد. أريد أن أكون بمفردي، وحيداً". ومتى لم يكن زامبانو وحيداً؟ وهو الآن خائر القوى، يستند إلى أحد الأعمدة، ويتجه إلى البحر.



فيلم «الطريق»، الذي يراه الكثيرون درة أفلام فيليني وأفضل أدوار جوليتا ماسينا، توفرت له عناصر البقاء ليكون عملاً إنسانياً، فهو ثمرة جهد جماعي سابق على التصوير

اكتفى المشهد الأخير بتصوير الفضاء الليلي للشاطئ وللبحر، أفق أسود تماماً إلا من زبد أبيض لوج يرتطم بالشاطئ. ويخوض زامبانو في الماء، يغسل وجهه ثم يعود إلى الشاطئ، ويحرق إلى لا شيء، كأنه يتأمل نفسه وحياته ورحلة جيلسومينا معه، ثم ينظر إلى السماء، ويقلب وجهه في تتبع ما لا نراه، ويمتلئ صدره باهة ندم عميقة، يطلقها ويبيكي. ينهار ويغترف الرمال بيديه، ويبيكي والكاميرا تتراجع فيتضائل، حتى يوشك على الاختفاء.

بفيلم «الطريق» صنع فيليني تراجيدياً عصرياً، أبطالها فقراء مهمشون، تسحقهم الحياة، ولا يرحم بعضهم بعضاً. ولا يستجيب البعض، مثل جيلسومينا، لفرصة نجاة على يد محب في صدق «المجنون». ومنذ متى يختار أبطال التراجيديا أقدارهم؟

المراة؟ وما إذا كان يعتاد مواعدة النساء؟ وهل كان يعامل روزا بهذه الطريقة؟ ثم يبدأ التحول في حياتها حين تقرر أن تتركه، وتهرب قبل أن يصبح، وأثناء انتظارها في طريق ريفي يمر بها ثلاثة رجال يعزفون فتسحرها موسيقاهم، وتتبعهم لتجد نفسها في احتفال ديني في ساحة، وينتهي بظهور البهلوان الشهير «الماتو» أي المجنون (الممثل الأميركي ريتشارد بزهارت)، وهو يحلق بانجحة مثبتة وراءه، ويمشي على حبل مشدود. وسيكون «المجنون» هو المعادل المضاد لزامبانو، فهو ودود، دائم الابتسام، ويجيد التعامل بما يليق بفنان يجذبها إلى أعلى برهافة، بعيداً عن المجال الأرضي المحدود لزامبانو. ويتم التعاقد مع زامبانو لتقديم فقرة في السيرك، ويعلمها المجنون كيف تعزف وترقص، ويبلد مدير السيرك إلى تنظيم عرض بمشاركة المجنون وجيلسومينا وحدهما، فيغار زامبانو، وتجري بينه وبين المجنون شجارات تنتهي باشتباك على الطريق، وهو يبذل إطار سيارته، فيضربه زامبانو، ويسقط المجنون على الأرض، وتصيح جيلسومينا "أصيب المجنون"، ويظنه زامبانو قد مات، فيلقيه في مجرى مائي، ويدفع السيارة من أعلى فتشتعل فيها النيران.

وتصاب جيلسومينا بالذهول، وتلازمها صيحة "أصيب المجنون"، وترددها من دون وعي حتى وهي تنقر الطلبة، أثناء فقرة زامبانو الذي يتركها على الطريق نائمة بجوار جدار مهجور، ويضع بجانبها الترومبيت وبعض النقود، ويحكم عليها الأغصان. ولعله خاف أن تكون سبباً في كشف جريمته، فدفع العربة بساعديه، حتى ابتعد بمسافة أمتة فلا تستطيع، ثم أدار الموتور وأسرع مبتعداً.

ولم يعد زامبانو ذلك الشاب الممتلئ بالقوة، فقد صار يؤدي فقرته في السيرك بتناقل ومن غير همة، وهرمت خطواته، وتقدمت به السن. ولكن لأنه لا تخطئ نغمة حزينة كانت جيلسومينا ترددها، ويسمعاها الآن بصوت امرأة، فيمشي منجذباً إلى مصدر الغناء، حتى يصل إلى امرأة تنشر الغسيل على حبل، ويحول سلك شائك بينه وبين المرأة التي تخبره بأنها تعلمت هذه النغمة من فتاة عاشت بينهم قبل أربع أو خمس سنوات، ولم تتحدث قط، ولم يتعرف عليها أحد، وكانت "مجنونة قلبلاً"، ودائماً تعزف على الترومبيت، ولم يكن لها ماوى حين عثر عليها أيوها بالقرب من الشاطئ، وأصبحت بالحمى، وظلت تبكي وترفض الطعام، وكلما تحسنت صحتها خرجت لتعزف. وقد ماتت.

يرتكها زامبانو ويمضي بفتور لاداء فقرته في سيرك على الشاطئ، وحيداً لا تؤنسه الفتاة التي كانت

وقبل العرض يديرها على طريقة الأداء كما يذب القرد في السيرك. في الخلاء ينفخ زامبانو في آلة الترومبيت ليعلمها كيف تعزف، ثم يتناول الطلبة، وتمسك جيلسومينا بالترومبيت وتختبره ببراعة، وتجرب النفخ، فيجذب زامبانو الآلة بغلظة، وينبهها ألا تفعل شيئاً إلا إذا أمرها به، وأن مهمتها تقتصر على نداء "ها قد وصل زامبانو"، أو "هنا زامبانو". وتخطئ في نطق الكلمات بالإيقاع المطلوب، فيضرب ساقها بالعصا، وتكرر المحاولة وتفشل فيضربها، وتحاول من جديد وهي تبكي، وخلفها يأتي للمشاهدة أطفال منعقون ليسوا كآخوتها. وفي المشهد التالي يسألها زامبانو عن اسمها، ولا تغضب جيلسومينا التي يصفو قلبها دائماً، وتسمعه يقول لجمهور السيرك "زوجتي سوف تمر عليكم بالقبعة بعد العرض"، ثم يقدمها لأصدقائه في الحانة باعترافها زوجته. ويبدأ بينهما في الحانة أول حوار للنواصير الإنسانية، فتسأله جيلسومينا "من أي مكان يا زامبانو؟"، يجيب "من قريتي". تسأله "أنت تتكلم بطريقة مختلفة عن الناس، فأين ولدت؟"، فيجيب "في بيت أبي". ثم ينقطع التواصل؛ لانشغاله بمداغبة امرأة بفجاجة يضرب مؤخرتها. ويقدم نفسه إلى المرأة بأنه فنان متجول، ويشير إلى جيلسومينا قائلاً للمرأة "وهذه مساعدي"، وتكتفي جيلسومينا بنظرة دهشة طفولية إلهيما، ولا تجدي أي غيرة أو ضيق. ويتركها في الشارع، ويذهب مع المرأة، فتتظفر جيلسومينا على الرصيف حتى الصباح، وفي الشمس تفاجأ بطق فيه طعام بجوارها، وتعطيها طفلة شيئاً، وتتجاوز امرأتان عن جيلسومينا التي "بها شيء". وتسال المرأة جيلسومينا عما إذا كان زوجها صاحب العربة الغربية التي كانت مركونة هنا ليلة أمس؟ وتخبرها بأنه نائم في أقصى المدينة بجوار الكتيبان الرملية بالقرب من مزرعة. ولم تكن "العربة الغربية" إلا دراجة نارية ذات ثلاثة إطارات (تروسيسكل) ولها صندوق خلفي أقرب إلى بيت متنقل يتسع للكتاب وللنوم أيضاً. وكانت القاهرة قد سخرت اسم من العربة، فقال زامبانو بزهو "إنها أميركية"، وهذا كاف للتدليل على جودتها كوسيلة تنقل في إيطاليا عقب الحرب الأوروبية العظمى.

توقفه جيلسومينا فلا يستجيب، وفي مشهد يؤكد سلامة فطرتها، تخبره بأنها زرعت طماطم، إذ عثرت على البذور وزرعتها وهو نائم، فيسخر منها لأنها لن يبقيا هنا حتى ينمو الزرع. وتوجه إليه أسئلة عن علاقته بتلك

في تاريخ السينما، يندر أن تجد عيني بطلاً قادرة على أن تلخص، إيماناً بصدق نادر، هذا المزيج من العفوية والسذاجة والدهشة والسعادة والرضا والسماحة والتصالح مع العالم واليتم والحزن والقهر والوحدة والأسنى. كانت "جيلسومينا" في الفيلم الإيطالي "الطريق" صاحبة تلك العينين. ويهذه المشاعر خاضت الفتاة، التي لم تتخل عنها برابته، اختبأ صامداً في "الطريق" الأكثر تعقيداً من مجرد مسافة بين مكان وآخر، وإنما هو الحياة نفسها، أو تجربة تنتهي معها مرحلة البساطة، لكي تبدأ مواجهة غير متكافئة بالطبع مع ما يمثله "زامبانو" من شراسة وانغماس في المذات الحسية، مفتوناً بقدراته العضلية.

يبدأ فيلم "الطريق"، الذي أخرجه الإيطالي فيديريكو فيليني عام 1954، بمشهد نهاري لبطلته على شاطئ، وينتهي بمشهد ليلي لبطلته على شاطئ آخر. وبين القوسين تدور الأحداث خلال 108 دقائق، في صراع بين الحياة والموت، العذوبة والتوحش، الطهارة والخطايا، الفطرة والخبرة العنيفة التي لا تتورع عن إقدام "زامبانو" على القتل والشروع في سرقة غرفة الراهبات في الدير. وقبل المشهد الأول يهدد الملحن الإيطالي "نينوروتا" لهذا الصراع بموسيقى تصويرية أشبه بضربات القدر والمصائر التراجيديّة. وكان الفيلم من أصدق تمثيلات الواقعية الإيطالية الجديدة بعد انتهاء الحرب الأوروبية العظمى عام 1945. وقال بوب ديلان إن فيلم "الطريق" كان من أهم المؤثرات التي استوحى منها أغنيته "Mr Tambourine Man" عام 1965.

سعد القرش
روائي مصري

مثل فنان تشكيلي، يرسم فيديريكو فيليني في فيلم "الطريق" أوجز وأبلغ تقديم لبطلته. ففي المشهد الأول جامعة حطب صغيرة السن، في لحظة متوسطة، وأمامها قضاء رحب وشاطئ فقير. كانت كتف فوق ظهرها حزمة من البوص وتلتقط المزيد، وهي تتجه إلى الشاطئ، ولا يراها المشاهد الذي يسمع صوتاً قادماً من خلفها ينادي "جيلسومينا"، وتتبعثر الحروف في الفضاء، ويظن عليها هدير الموج، يدخل إلى الكادر من أقصى اليسار أربعة من الصبية يقابلون جيلسومينا، ويبلغونها بضرورة الرجوع إلى البيت، فهناك رجل يقول إن أختها "روزا" ماتت. هذا المشهد الأول في الفيلم سيكون آخر عهد لها بالبيت، أي بيت، ويصير بيتها هو "الطريق" الذي يربط مصيرها بهذا الرجل العنيف.

ينظرة سريعة، تسهل الإحاطة بالملامح الجسدية لجيلسومينا (اندت الدور ببراعة استثنائية الممثلة جوليتا ماسينا وهي زوجة فيليني)، بقصر قائمتها وضالّة بنيتها. وأما ملامحها الاجتماعية والنفسية فيرسمها عالمها القهري المحسود، وعينها الواسعان ونظراتها البريئة المتارحة بين ابتماسة متفائلة، وحزن على وفاة أختها، وهشّة لخوض تجربة ستوتولي فيها إمداد الأسرة بالمال، بالذهاب مع رجل لا تعرفه، إذ تسألها الأم باكية وهي تحمل أحد أبنائها "هل تعرفين زامبانو زوج روزا؟"، وتخبرها بأن روزا ماتت بعيداً، ولن تعرف لها قبراً، ويجسده الضخم يقف زامبانو (أنطوني كوين) بزواوية مائلة، في ضجر لا يتخلص منه بتدخين السيارة، ولا يابه لنكر الموت، أو لأن من ماتت كانت زوجته. ويتفحص الفتاة باستهانة وفضافة، ولا ينتظر دعوة من الأم لكي ينظر إلى جيلسومينا، ليؤكد أنها تشبه أختها روزا. وتمتدح له طيبة جيلسومينا والتزامها، وتحثها على الذهاب معه، وتامل أن تتسبب مهاراته، وتكسب المال لإطعام إخوتها اليتامى الجائعين "ستريث العالم، وتتعلمين الغناء والرقص".

وليس ما جرى إلا صفقة بيع نفس بشرية، بمبلغ 10 آلاف ليرة، جعلت الأم تقرح، وتكاد تضحك ضحكة عابرة مسرورة، وهي تُري الأوراق المالية لابنتها، وتقول إنها الآن تستطيع إصلاح سقف البيت وشراء طعام. وكان مبلغ الشراء زهيداً، ففي إحدى الحانات سيديف زامبانو 4200 ليرة ثمناً لوجبة عشاء، قبل أن يخرج وفي يده امرأة اغوته، وفي يد جيلسومينا زجاجتا نبيذ.

في المشهد الأول كانت جيلسومينا تنظر إلى زامبانو من أسفل، بحياد واستغراب، وهو يتأملها من أعلى بعيون مرتابة تخلو من الشفقة، ولا يتكفي بخشونة نظراته، وإنما يرد على سؤال الأم "هل تستطيع يا زامبانو أن تعلمها شيئاً؟"، فبدر من دون تعاطف "نعم، أستطيع تعليم أشياء كثيرة حتى لكل". ويمض إخوانها بعض المال لشراء طعام، وتعطيهم جيلسومينا



في استفتاء أجرته مجلة «فوكاس» الأميركية لأختيار قائمة تضم أشهر 100 فيلم في تاريخ السينما العالمية من بين 250 ألف فيلم، احتل فيلم «الطريق» المركز الرابع والستين

